التفاتة وفاء إلى صانعي التجربة وأبطالها وشهدائها. وقد نجح هذا الكتاب إلى حد كبير في تقديم صورة إنسانية مشرقة لشخصيات فلسطينية وعربية بعيدة عن الأضواء تركت أثراً في الحياة السياسية العربية والإسرائيلية.

لقد ركزت سيرة شفيق الغبرا على عدم الفصل بين الجوانب الشخصية والخاصة وتضحيات ومآثر الجيل الذي صنع أسطورة السرية / الكتيبة، لكن من الصعب ألاّ ينتبه القارئ إلى أن شفيق الغبرا الذي يشعر بالحنين إلى رفاق السلاح والشهداء الذين سقطوا من دون أن يحقق رغبتهم وأمنيتهم، يحتاج إلى أن يعيد الاعتبار إلى نفسه من خلال تأريخ تجارب جيل من الفدائيين التزم "قتال الأقلية المدافعة" (ص ٣٦٣)، وهو مفهوم طوّره أبو حسن قاسم إزاء حالة تشتت العرب وضعف قدراتهم وتفوّق الآلة والعدد في الجانب الإسرائيلي، الأمر الذي يحيل على تقويم الدكتور يزيد صايغ في أطروحته "الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٣–١٩٩٣: الكفاح المسلح والبحث عن الدولة".

ميشال نوفل
كاتب لبناني

يافا تعدّ قهوة الصباح (رواية)

أنور حامد

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٢. ٢٠٥ صفحات.

عندما قرأت عنوان هذه الرواية قلت في نفسي إن يافا عثرت أخيراً على روايتها. القدس تمتلك جبرا إبرهيم جبرا، وحيفا كانت موضوع رواية لغسان كنفاني، ومدن الجليل وقراها وجدت رواتها في إميل حبيبي وأنطون شمّاس وآخرين، أمّا يافا فلا أدري لماذا بقيت من دون رواية تحكي قصتها. لعل كتاب "يافا عطر مدينة" لمجموعة من المؤلفين، وبالنص الرائع الذي كتبه شفيق الحوت، هو المرجع "الأدبي" الوحيد عن تلك المدينة الساحلية الفلسطينية التي كانت العاصمة الاقتصادية والسياسية والثقافية لفلسطين قبل النكبة. لا أدري لماذا لم تحتل يافا موقعها في خريطة السرد الأدبي الفلسطيني، وهي المدينة الفلسطينية الكبرى التي اندثرت وتحولت إلى ضاحية لتل أبيب.

ولولا فيلمَي إسكندر قبطي "عجمي"، وإميلي جاسر "ملح هذا البحر"، لقلنا إن الثقافة الفلسطينية، لسبب ما، نسيت مدينة العطر التي تحتل بيّاراتها الذاكرة الفلسطينية.

وعلى الرغم من أن أنور حامد ليس يافاوياً، فإنه كتب الرواية الفلسطينية الأولى التي تحتل يافا عنوانها. وُلد المؤلف في عنبتا بالقرب من طولكرم، ويعمل في "البي. بي. سي."، وسبق أن نشر ثلاث روايات: "حجارة الألم" (٢٠٠٤) صدرت بالمجرية؛

"شهرزاد تقطف العنب في عنبتا (٢٠٠٨)؛ "جسور وشروخ وطيور لا تحلّق" (٢٠١٠).

هذه الرواية هي مشروع بحث إحيائي ليافا، إذ قام الروائي بجمع كثير من الأدب الشعبي، وبتقصّي الحياة اليومية في المدينة قبل النكبة، وذلك في إطار روائي يجمع الرومانسية إلى الواقعية السحرية، في إطار ميتا ـ روائي يكتب نصاً على نص سابق.

وتتجلى الرومانسية في قصة الحب التي جمعت بهية، ابنة أبو إبراهيم الفلاح الذي يعمل في بيّارة البيك أبو سليم، بفؤاد الابن الثاني للبيك الذي يدرس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت. وحكاية الحب الرومانسية هذه تقتفي أثر الترسيمة التي رسمتها رواية "زينب" لهيكل، وتعيد إنتاج رومانسية الحب التي تحطمها وحشية العلاقات الطبقية.

أمّا الواقعية السحرية فتأتي في بداية الرواية لترسم شخصية بهية أو أم فؤاد، وهي الآن امرأة ثمانينية، متزوجة وتعيش لاجئة في الشونة الشمالية، لكنها تبني حياتها بشكل سحري. كانت ألوان جدران غرفتها زرقاء، والستائر عبارة عن شباك صيد، والأكياس البلاستيكية الملأى بمياه البحر تتدلى في كل مكان. حملت المرأة بحر يافا معها، فهذا البحر كان ملاذها الأخير بعد محاولة انتحارها، عندما ارتمت في مياهه بهدف محو عار محاولة اغتصابها الفاشلة التي أرادت العائلة الإقطاعية جرّ فؤاد إليها.

لكن إلى جانب هذين العاملين يأتي النص على النص، فالرواية هي حكاية كتابة رواية عن يافا. المؤلف يعثر على قصته في عمّان عند بهاء حفيد فؤاد، الذي سيعطيه مذكرات الجد العاشق ويأخذه لزيارة بهية. بعد هذه الزيارة يأخذنا المؤلف في رحلة إلى يافا برفقة صديقه الإسرائيلي يائيل، ويدخل المدينة من بوّابة مقبرتها بعدما أدى تدخينه لفافة حشيشة، إلى ما يشبه الغيبوبة الرؤيوية. وهنا تصير الرواية ثلاثة نصوص متداخلة: مذكرات فؤاد؛ حكاية الراوي المتخيل الذي كان يبحث عن قصة؛ القصة نفسها. وهذا التداخل يقود إلى الالتباس ويطرح علينا سؤالاً أساسياً: أين تبدأ مذكرات فؤاد وأين تنتهي؟ وكيف بُنيت الرواية من هذه النصوص المتداخلة؟

لا أعتقد أن حكاية بسيطة كحكاية حب ابن الإقطاعي للفلاحة تحتاج إلى هذا التعقيد الذي لا يضيف شيئاً، بل إن شخصية بهية التي تبلغ الثمانين، وهي تبدو كالخارجة من روايات أميركا الجنوبية، لا معنى لها، لأن هذا الهوس البحري الذي حوّل المرأة الكهلة إلى هُزأة للأطفال لا يضيف جديداً على شخصيتها، وإنما يجعل منها رمزاً حائراً بين الأرض على غرار "زينب"، والبحر كما في روايات حنا مينة.

وأغلب الظن أن الروائي كان يريد تسجيل ذاكرة الأغاني الشعبية خوفاً عليها من الضياع، وهذا هدف نبيل، لكنه لا يحتاج إلى ثلاث حبكات متداخلة، تُفقد النص هويته الأسلوبية، جاعلة منه احتمالاً لم يتحقق. وأخيراً، فوجئتُ بمَن يكتب عن يافا أنه نسي موسم النبي روبين، ففي إطار هذا الموسم البحري كان يمكن للعلاقة بين فؤاد وبهية أن تتطور وتتخذ منحى يُخرجها من الترسيمة الجاهزة.

لنعد إلى الحكاية الأصلية، أي حكاية بهية وفؤاد، وهي حكاية تملك كثيراً من عناصر

المتعة، وتعرّفنا إلى يافا قبل النكبة بتنوعها الاجتماعي والطائفي، وتأخذنا إلى مقاصفها ومطاعمها ومسارحها ودور السينما فيها. بل إنها تتغزل بأنواع الطعام المتعددة، وتكشف بعض حقائق الاستلاب الكولونيالي، ومنها على سبيل المثال شرب الويسكي مع المازات العربية بدلاً من العرق! لكنها تُبقي العلاقة بين العاشقين في حدودها الدنيا ولا تقوم بتطويرها، حتى إنهما لا يلتقيان وحدهما ولا لمرة واحدة! العلاقة بينهما كناية عن عشق أخرس، والدلالات الاجتماعية لهذا العشق لا تضيف جديداً.

ثم إنني لم أفهم معنى علاقات فؤاد بالحزب السوري القومي خلال دراسته الجامعية، وأثرها في مواقفه، إذ لم نلمس عنده أي اهتمام جدي بالقضية الوطنية عشية النكبة الفلسطينية.

تجسّد هذه الرواية طموحاً كبيراً ومشروعاً، وهو طموح كتابة حكايات فلسطين قبل نكبة ١٩٤٨. ويدعم هذا الطموح أسلوب سلس ومباشر، استطاع من خلال تقطيع العمل إلى فصول واضحة المعالم أن يلتقط كثيراً من التفصيلات، مقترباً من تعقيدات الحياة عشية حرب النكبة في سنة ١٩٤٨.

هل استفاقت يافا كي تعد لنا قهوة الصباح؟

أغلب الظن أن المدينة لا تزال تبحث عن حكاياتها، وأن هذا النص ليس سوى محاولة أولية للاقتراب من يافا تمهيداً لكتابة روايتها.

خليل أيوب
كاتب لبناني